الثورة
الثلاثاء 29 ذو القعدة 1433هـ 16 أكتوبر 2012م العدد (17499)

قراءة في كتاب

«السياسة البريطانية في مستعمرة عدن

تقديم / رياض شمسان

انطلاقا من حرص صحيفة «الثورة» على تنوير الاجيال اليمنية وضرورة المامها بتاريخ اليمن الحديث وخاصة ما يتعلق بالحقائق الخاصة بالاحتلال البريطاني لجنوب الوطن ها نحن اليوم في العيد التاسع والاربعين لثورة ١٤ أكتوبر المجيدة نقدم للقراء الكرام قراءة في كتاب »السياسة البريطانية في مستعمرة عدن ومحمياتها١٩٤٥-١٩٣٧ م« وهو الكتاب القيم الذي قامت بتأليفه وإصداره الاستاذة الفاضلة شفيقة عبدالله العراسي بعدن.

الكتاب الصادر في« ٣٤٠ »صفحة يتضمن دراسة اكاديمية ممتازة ونادرة اخترنا منها بعض الجوانب الهامة التالية:

■ ١- بريطانيا وتنامي اهتماماتها بالمنطقة اليمنية ٩٠٦١-٦٣٩١م

١-١أولى الاهتمامات بالمنطقة اليمنية: استرعت أهمية منطقة البحر الاحمر واستراتيجيتها الاقتصادية انتباه الحكومة الانجليزية منذ بداية النشاط التجاري لشركة الهند الشرقية واقتصر نشاطها في اليمن خلال الفترة١٧٩٨-١٦٠٩ م على إنشاء الوكالات التجارية في ميناء المخا لأنه من أهم الموانئ التجارية في اليمن حنيئذ وكان يتم ذلك بعد مصادقة الحكومات اليمنية سواء في ظل النظام العثماني أو الإمامة اليمنية على منحهم هذا الامتياز شأنهم في ذلك شأن غيرهم من التجار الهولنديين أو الفرنسيين.

كان النشاط التجاري الانجليزي للشركة غير مستقر في المنطقة اليمنية لعدم استقرار أوضاع الشركة الانجليزية نفسها من ناحية وهيمنة الشركات الغربية المنافسة من ناحية أخرى فقد تأسست شركة الهند الشرقية الانجليزية عام١٦٠٠ م وواجهت كثيرا من المشاكل التي هددت استقرارها في الشرق لظهور شركات انجليزية أخرى حصلت على امتياز من الحكومة الملكية الانجليزية نفسها التي انتهى امرها باتحادها مع الشركة الأولى عام١٦٤٩ م إضافة إلى ذلك هيمنة الشركة الهولندية والفرنسية في المنطقة واحتكارهما التجارة كذلك اسلوب القرصنة الذي اتبعته الشركة الهولندية مما أدى إلى تجميد نشاط الشركة الانجليزية في المنطقة اليمنية حتى نهاية القرن السابع عشر.

وعظم نفوذ الانجليز في الشرق بعد أن تمكنت الشركة من السيطرة على شبه جزيرة »بومبي« عام ١٦٨٨م وفي هذا السياق اشار بونداريفسكي إلى أن بومبي ميناء طبيعي هام أصبح مقرا للشركة الانجليزية وتدار منه جميع العمليات العسكرية المرتبطة بالخليج والبحر الأحمر.

ونظرا لهذا النجاح ظهرت شركة انجليزية منافسة سعت للثروة والنفوذ الأمر الذي دفع بالحكومة الانجليزية إلى توحيدهما في مؤسسة واحدة عام ١٧٠٨م منعا للصراع بينهما وعرفت باسم شركة الهند الشرقية الشهيرة » وشكل هذا الاتحاد البداية الفعلية لنشاط الشركة واحتكارها لتجارة الشرق والتوسع عسكريا لاحتلال عدد من المدن الهندية.

وسعت انجلترا أمام نشاط الشركة في التوسع وبسط النفوذ إلى صبغ اعمال الشركة بصبغة رسمية بحيث تعطي للدولة الحق في الإشراف على المستعمرات الشرقية أهمها »الهند« بهدف الحد من نشاط فرنسا والتصدي لاطماعها في المنطقة وبناء على ذلك صدر قانون عام١٧٧٣ م وكان يعرف قانون بت الهندي »« حقق للدولة الإشراف على كافة الشئون المدنية والعسكرية والمالية للشركة.

ورفعت الثورة الصناعية انجلترا مع نهاية القرن الثامن عشر إلى مقدمة الدول العظمى على الرغم من فقدانها مستعمراتها في امريكا ودفعت بها إلى الرخاء والثروة مما جعلها تحقق قوتها السياسية والعسكرية واصبح لاسطولها البحري قدرات عالية ضد اساطيل اوروبا في جميع البحار والمحيطات ومكنتها هذه القوة من الوقوف في وجه اعدائها ومنافسيها وعلى رأسهم فرنسا وكذا فتح جميع الأسواق أمام تجارتها كما تمكنت من السيطرة على بعض أراضي الهند وبقي البعض الآخر تحت سيطرة هولندا وفرنسا واصبحت الهند أهم وأثمن المستعمرات الانجليزية واتسع نفوذ انجلترا الاقتصادي بعد أن حولت شعوب المستعمرات إلى مستهلكين لمنتجاتها الصناعية.

وحركت الحملة الفرنسية على مصر عام١٧٩٨ م السياسة الانجليزية نحو بسط النفوذ العسكري في منطقة البحر الأحمر بعد أن تبين لها استراتيجية المنطقة وأهميتها العسكرية وذلك لدرء الخطر على الهند واستغلت ضعف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد العربية وفرضت على حكام المنطقة عقد اتفاقيات صداقة وتجارة مع عدن ومسقط والخليج العربي وكانت هذه الاتفاقيات عطاء لمشروعات عسكرية مستقبلية في المنطقة.

لقد مهدت بريطانيا بهذه السياسة وبما لديها من قوة وثروة الطريق إلى فرض نفوذها على الطريق البحري من الهند إلى المملكة المتحدة عبر منطقة البحر الأحمر وكانت عدن البوابة الرئيسية لتنفذ من خلالها للعمل على تحويل منطقة البحر الاحمر إلى بحيرة بريطانية لذلك قامت بريطانيا بدراسة مخططها الاستعماري بفرض سيطرتها على عدن لاسيما بعد أن توفرت لديها الدوافع الاساسية التي رأت من خلالها أن الظروف مواتية لتحقيق ذلك المخطط.

٢-١دوافع بريطانيا لاحتلال عدن

■ تعاظم النشاط الاقتصادي البريطاني في ظل الهيمنة السياسية والعسكرية التي تمتعت بها بريطانيا منذ مطلع القرن التاسع عشر واحتلت عدن مركز الصدارة في خططها الاقتصادية والعسكرية المستقبلية وكان البريطانيون بحاجة إلى ميناء يقدم لهم تسهيلات خاصة لتحرك اسطولهم التجاري العسكري ووجدت بريطانيا أن عدن هي الميناء المناسب الذي يصلح مخزنا للفحم وتموين سفنها التجارية والعسكرية طوال أيام السنة التي تسير في خط مواصلات البحر الأحمر والخليج العربي باتجاه الهند.

إن اختيار عدن جاء وفق مخطط سياسي استعماري أعده البريطانيون بالتنسيق مع شركة الهند الشرقية وعليه لم تستطع بريطانيا التخلي عن فكرة احتلالها عسكريا واعتبرتها صمام أمان مستعمراتها الشرقية وذلك لتحكمها بمنفذ البحر الأحمر الجنوبي واصبحت هذه الفكرة ذات أهمية بالغة بعد أن تمكنت القوات المصرية من تحقيق انتصارات عسكرية في أجزاء من الاراضي اليمنية واحتلالها المناطق الساحلية وكذا مدينة تعز وأوشك امام اليمن على الاعتراف بسيادة محمد علي حاكم مصر وفتح أبواب صنعاء وفق شروط مرضية له.

ولقد أسهمت اتفاقية الصداقة والتجارة المبرمة بين بريطانيا وسلطان لحج العبدلي عام١٨٠٢ م في إعطاء صورة واضحة على الواقع السياسي العسكري والاقتصادي والاجتماعي أيضا لأوضاع عدن ومجتمع جنوب اليمن وكانت هذه الاتفاقية بمثابة المقدمات الأولى للاحتلال إذ ساعدت على تعاظم النفوذ الاقتصادي للبريطانيين ترتب عليه بناء ركيزة من الاعوان لها في الداخل واستطاعت بريطانيا لما ذكر آنفا تنفيذ مخططها الاستعماري بإرسالها حملة عسكرية بحرية بقيادة الكابتن ستفاورد بيترهينس »« لاحتلال عدن في التاسع عشر من يناير عام١٩٣٩ م.

لم يستطع »هنيس« استمالة اليمنيين بسهولة فقد شهدت الفترة من١٨٤٠ م حتى١٨٤٦ م تصاعدا ثوريا ضد قوات الاحتلال البريطاني في عدن فقد كان سلطان لحج العبدلي على رأس هذه المقاومة وعلى الرغم من تكرار المحاولات العسكرية المناهضة لقوات الاحتلال بهدف استعادة عدن إلا أن جميعها أحبطت ويعني ذلك أن اليمنيين اجبروا على الاستسلام بسبب أن امكانياتهم العسكرية لم تكن تتلاءم مع إمكانيات العدو كما أن ظروف الهزيمة المتكررة دفعتهم إلى قبول سياسة الامر الواقع والخضوع لسلطان المال واغراءاته مقابل معاهدات تلزمهم تنفيذ ما ترسمه لهم السلطات البريطانية في عدن إضافة إلى سلامة وصول قوافل المنتجات التجارية البريطانية نحو الداخل، وعرفت هذه المعاهدات بمعاهدات الولاء والصداقة والسلام.

امنت هذه السياسة لبريطانيا شيئا من الاستقرار النسبي إلا أنها لم تقض نهائيا على جميع الاعمال العسكرية ضدها التي أخذت بعضها طابع التمردات القبلية فكانت تعمد القبائل المتمردة في مثل هذه الحالة إلى قطع الطرقات ومصادرة قوافل التموين مما دفع بالسلطات البريطانية للجوء إلى حلفائها من امراء وسلاطين لمساندتها على قمع هذه التمردات أو الحد منها.

استطاعت حكومة عدن استقطاب سلطان لحج ليكون حليفها الدائم والمنفذ لحل كثير من الخلافات بين السلطات البريطانية وحكام المنطقة كما كان الشخصية المميزة من حيث الهبات المالية والمكانة الاجتماعية وغيرها من المميزات التي تظهر عمق العلاقة البريطانية- العبدلية.

وتطلعت بريطانيا في نفس الوقت إلى المقاطعات الشرقية من جنوب اليمن وأهمها حضرموت لإخضاعها بمعاهدات حماية السفن وحظر تجارة الرقيق وكانت ترمي بذلك إلى بسط نفوذها السياسي فيها وحظي السلطان القعيطي بنفس المكانة السياسية والاجتماعية التي كان يحظى بها العبدلي لدى السلطات البريطانية لاهميته في تأمين مصالحها في المنطقة اليمنية.

حققت سياسة الولاء والصداقة بعضا من الاستقرار السياسي والاقتصادي لعدن في الوقت نفسه تنامت أهميتها يتنامي الاحداث الدولية سياسيا واقتصاديا وعسكريا وأصبحت بذلك أحد أهم المراكز الحيوية التي لا يمكن الاستغناء عنها وسعت بريطانيا لتحقيق أحد أهم أهداف احتلالها لعدن كميناء تجاري وتنشيطه اقتصاديا على النحو التالي:

جذب العمليات التجارية من الموانئ اليمنية الخاضعة لنظام محمد علي، وكذا الموانئ الإفريقية المجاورة.

احتكار تجارة البن ليتم تصديره من عدن بدلاً من المخا لضرب اقتصاد مصر، وكذا تعطيل الموانئ اليمنية الأخرى بغرض إضعاف نشاطها داخل المنطقة اليمنية.

تحويل عدن إلى ميناء حر عام١٨٥٣ م بهدف ربطه بالعالم الخارجي بعد تحريره من قيود الاستيراد لازدهاره ورخائه.

وعظم أهمية عدن الاقتصادية والعسكرية بافتتاح قناة السويس عام١٨٦٩ م، إذ أصبح خط البحر الأحمر أقصر الطرق الملاحية وأكثرها حيوية ونشاطاً، وأدركت بريطانيا قيمة عدن، ومدى أهميتها الحيوية في شبه الجزيرة العربية، وكذا تأثيرها في مستقبل السياسة البريطانية في المنطقة.

وشهدت منطقة البحر الأحمر في أعقاب الاحتلال البريطاني لعدن تطورات سياسية وعسكرية تمثل ذلك بسعي كل من فرنسا وإيطاليا لشراء مراكز استراتيجية في جنوب غرب البحر الأحمر، كقواعد عسكرية لتوازن قوة كل منها بالقوة البريطانية في المنطقة لا سيما بعد شق قناة السويس عام١٨٦٩ م ولم تحاول ألمانيا الحصول على مراكز عسكرية لا في منطقة البحر الأحمر إذ اتجهت بأطماعها إلى المنطقة الشرقية من البلاد العربية فحصلت على امتياز من الدولة العثمانية في نوفمبر عام١٨٩٩ م، قضى بمد سكة حديد يربط هامبورج برلين فيتنا ببغداد والخليج العربي عبر الآستانة.

وظل نشاط فرنسا وإيطاليا في كل من الصومال ومنطقة الشيخ سعيد ومصوع اقتصادياً تجارياً ولم تقم أي منهما بعمل عسكري يثير حفيظة بريطانيا في عدن إلا أن بريطانيا كانت تراقب نشاطهما وتحركاتهما من قاعدتها في عدن، واستطاعت فرض هيمنتها على منطقة البحر الأحمر، والتحكم بمنفذيه الشمالي والجنوبي (قناة السويس وعدن) وكذا التحكم بخط الملاحة عبرهما، نحو أوروبا باحتلالها مصر عام ١٨٨٢م وقبرص عام١٨٧٨ م بهدف تأمين مصالحها في البحرين الأبيض والأحمر.

■ **السياسة البريطانية في ظل الحكم العثماني في اليمن ١٨٤٩ - ١٩١٨ م:**

أثار نشاط بريطانيا السياسي والعسكري في جنوب اليمن الدولة العثمانية فحاولت استعادة نفوذها الفعلي في اليمن بحملتين عسكريتين كانت الأولى عام١٨٤٩ م والثانية عام١٨٧٢ م حققت بهما السيطرة على أجزاء من إقليم شمال اليمن على طريق تحقيق النفوذ الكامل لجميع أجزاء المنطقة اليمنية، لا سيما الأراضي الجنوبية المشمولة بمعاهدات الولاء والصداقة وأدى الوجود العثماني في اليمن إلى ظهور ثورة يمنية مناهضة لبني عثمان، اشتدت مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وأصبح الوضع السياسي العسكري يهدد المصالح السياسية العسكرية والاقتصادية لحكومة عدن البريطانية.

وفي خضم هذه المتغيرات السياسية تحركت السياسة البريطانية نحو حماية مصالحها وتعزيز مكانتها وقوتها في المنطقة، وأرادت بريطانيا على الصعيد الخارجي لعدن إحكام قبضتها على مستعمراتها الشرقية وإخضاعها لحكومة التاج مباشرة فأصدرت قانوناً عام١٨٥٨ م عرف (بقانون التنمية الأفضل للهند An Act for the better) (development of india وتم بموجبه إلغاء حكم شركة الهند الشرقية الإنجليزية بشكل نهائي وانتقال سلطاتها إلى حكومة بريطانيا مباشرة وعزز هذا الإجراء (إعلان الملكة فكتوريا) (Queens Proclomation) الذي أعلن فيه نقل السلطة من الشركة إلى حكومة التاج البريطاني، ووضع أسس الحكم الجديدة الواجب إتباعها في الهند.

وأدركت بريطانيا بما يتعلق بسياستها على الصعيد اليمني، أن شق قناة السويس ضاعف من أهمية عدن الاستراتيجية، أكثر من السابق فهي كميناء حر على خط التجارة العالمي ستكون أكثر حيوية ونشاطاً ورافداً عظيماً لخزينة المال البريطانية ولازدهار

القوات البريطانية الغازية تتجه صوب كريتر عن طريق خليج صيره

العيد التاسع والأربعون لثورة الرابع عشر من أكتوبر المجيدة

ثورة ١٤ أكتوبر.. وحدوية النهج ووحدوية النضال